الحلقة العاشرة

فى قلاع المجد مع الأبطال المجاهدين

(فاتحين ، مرابطين ، موحدين ، مرينيين ، ومصامدين)

بؤر الضياع لم ولن تحجب قلاع المجد ، ودموع الباكين أو المتباكين رغم استمراريتها ، وكثافتها وتنوعها ، لم تُذرف فقط على الفِردوس المفقود ، وتُسكب عبر أنّاته المتلاحقة قبل وأثناء احتضاره وبعد ضياعه ، وإنما بكت الأبطال الذين استبسلوا دفاعاً عن راية الإسلام فى الأندلس مستميتين فى سبيل إعلاءها والاندفاع بها فى كل اتجاه فاتحين ، ولاة وأمراء وخلفاء ومرابطين وموحدين ومرينيين منقذين ومتجاوزين بهذا الأندلس أزماته ، ومتلاحمين مع الصامدين فوق أرضه فى فترات التراجع والتردى حتى الرمق الأخير خلف أسوار غرناطة الحبيسة وهى تعانى فى سكرات الموت من الطفيليات داخل جسدها ، استكمالاً لهجمات عدو شرس عرف كيف يستغل الظروف لصالحه ويحقق وحدته على حساب تفتيت وحدة المسلمين حتى فى داخل الأسرة الواحدة ، ولنستعيد رموزاً من هؤلاء الأبطال فى مختلف الفترات وعلى التوالى ، لنذكر لمن لا يريد أن يتذكر أن أزمة أمة لا تعنى بالضرورة نهايتها وفناءها ، وإنما هى معارج بين كَرٍّ وفَرٍّ ، مهزوم الأمس منتصر اليوم . وهكذا دواليك ، ﴿ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١) ، مصداقاً لقول الحق سبحانه .

فحينما نفرد هذا الفصل لجولة فى قلاع المجد مع الأبطال المجاهدين ، فذلك حتى لا نجعل من بكاء الباكين والمتباكين قاعدة لمسيرة الأمة ، وإنما هو صدى لوعكة من وعكاتها ، ولِمَ لا ؟ فمَن هذا الذى يغفل أو يتغافل ، يجهل أو يتجاهل « طارق بن زياد » ، و« موسى بن نصير » ، وهذا المعافرى « طريف بن مالك » ، المعروف بأبى زرعة ، وبهم نبدأ جولتنا عابرين هذه القلاع .

---

(١) آل عمران : ١٤٠.

دون الدخول فى تفاصيل قد تجد مكاناً لها فى العرض التاريخى للأندلس منذ فتحه بما فى ذلك التمهيد لهذا الفتح والعبور ، يمكننا أن نشير وفى إطار تراتبى ، إلى أن قلاع المجد لا يمكن أن يغفل حين استعراضها مَن شكلوا الإرهاصات الأولى لها أو حملوا راية التصدر لمواجهة المجهول ، وبكل عزيمة وثبات وصبر ، فهذا « طريف بن مالك المعافرى » الملقب بأبى زرعة ، والمستطلع لأبعاد وآفاق العبور ، إلى جانب الاتصالات التى تمت بين القوط ، يليان كمثال الذى اتجه إلى الفاتحين لا حباً فى الإسلام ، وإنما لتصفية حسابات فيما بين القوط . لقد كانت الأرضية رغم صعوبة التعامل معها تحث هذا الذى عبر الشمال الإفريقى داعياً ومبشراً بالإسلام على أن يكمل مسيبرته ، فدعوة الإسلام غير محدودة بمكان أو زمان ، ومن ثَمَّ كان طبيعياً بعد أن وصل دعاة الإسلام إلى ما وصلوا إليه ، وأصبحوا على مشارف المحيط الأطلنطى ووجهاً لوجه مع الجزيرة الإيبرية وليس من فاصل إلا البحر ، أن يعبره بدوره ، فلن يكون بمياهه أشد قساوة من رمال الصحراء الحارقة ...

وقد كان ، فبعد أن نزل « طريف » بجزيرة بلوما التى باتت بعد ذلك تحمل اسم « طريفة » نسبة لطريف ، كان الفتح فى عام (٩٢ هـ / ٧١١ م) بريادة المدشنين لقلاع المجد « موسى بن نصير » و « طارق بن زياد » .

لقد اختار « موسى بن نصير » طارق بن زياد ، من بين قوّاده للعبور ، ولقد غلّف هذا العبور فى العديد من أساطير البطولة وبإطناب ، بل ركز كثيراً على خطبة طارق الشهيرة فى مواجهة البحر ، واختلفت المصادر التى حملت إلينا وقائع العبور بين مركِّز على جانب أو جانب آخر ، بين سارد أو مطنب ، بين مَن ينسب الخطبة الشهيرة لطارق أو لغيره ، ومع هذا الذى يعنينا هو أنه قد تم العبور ، عبور البطلين موسى بن نصير وطارق بن زياد ، حمل إلينا التاريخ ما يرمز لاستمرارية هذا الحَدث فى صفحاته وآثاره ، فهذا جبل طارق فضلاً عن تسميات أخرى متعددة لأماكن أخرى فى الأندلس ، تؤكد لنا أن مواكب الأبطال لم تمح بصماتها ولن تمحى .

وتتابع الزحف لا للتخريب والتدمير ، ولكن زحف المبشرين بعصر جديد تحت راية الإسلام ، راية التسامح والهداية وإنقاذ الإنسان ، وقد كان طبيعياً أن تكون هناك مقاومة ومواجهة ، بل ومعارك فاصلة كمعركة « وادى لكة » وغيرها ، وكانت المعارك تنتهى فى أغلب الأحيان بهزيمة القوط وتراجعهم ، واستمر طارق فى زحفه محاصراً وفاتحاً حتى وصل إلى إشبيلية وقرمونة ، ثم دخول موسى وطارق إلى مدينة طليطلة ، عاصمة القوط آنذاك ، ولقى ملكهم « لذريق » مصرعه ، على يد « مروان بن موسى » ، وتوبع الفتح بقيادة البطل طارق نحو سرقسطة ، وتقاسم طارق وموسى قيادة جماعات المسلمين المدعَّمة بالوحى الحق وبنور السماء - بعد والده - المسيرة ليكمل عبد العزيز بن موسى فاتحاً غرب الأندلس (البرتغال حالياً) ، وجنوب شرق الأندلس ، منظماً وواضعاً للأسس التى تسير عليها المناطق التى دخلت تحت راية الإسلام ... طارق بن زياد وموسى بن نصير سيظلان رمزان مشرفان لقلاع مجد هذه الأمة بغض النظر عما لحقهما من معاناة فى النهاية نتيجة الفتن والدسائس .

وهذا « السمح بن مالك الخولانى » المجاهد ، الفاتح والزاحف والمستشهد فى يوم الوقوف على عرفات (عام ١٠٢ هـ) يُذكر أيضاً من بين الأبطال كما يُذكر الغافقى كقائد من قوَّاد المسلمين فى الأندلس ، جاهد وناضل ، والحرب كَرٌّ وفَرٌّ ، مَن كان قد انتكس فى معركة « بلاط الشهداء » ، فلم يتراجع منها هارباً أو مبرراً لنكسته ولهزيمته عبر الشعارات ، وإنما مستشهداً وراوياً الأرض بدمائه فى « غالة » وفى رمضان ...

ومع مواكب الأبطال فى قلاع المجد نقف قليلاً لنُذكِّر بهذا الصقر « صقر قريش » ، والنعت كما روته مصادره التاريخية جاء على لسان الخليفة جعفر المنصور حينما ذكر « عبد الرحمن بن معاوية » الداخل الفاتح « المعروف بقوة بأسه وشجاعته ومواجهاته القادرة فى كل الجبهات » قال جعفر : أخبرونى عن صقر قريش من الملوك ، قالوا : ذاك أمير المؤمنين الذى راض الملوك وسكَّنَ الزلازل ، وأباد الأعداء وحسم الأدواء ، قال : ما قلتم شيئاً ، قالوا : فمعاوية .

قال : لا ، قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال : ما قلتم شيئاً ، قالوا : يا أمير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر ، وقصّ القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام مُلكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته ... إن عبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيّد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطّدَ الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين ، فقال الجميع : صدقت واللّه يا أمير المؤمنين » (عن ابن عذارى « البيان المغرب » جـ ٢ ص ٨٨ - ٨٩) .

بطل أموى يشهد له خليفة عباسى ، يتصدر فى قلاع المجد متميزاً فى هذه الفترة التى عرفت آخرين جاهدوا محاولين احتواء الفتن ، متدافعين مع الخصوم والأعداء ، رافعين لراية الجهاد كـ « هشام الرضى » ، و « الحكم الربضى » الذى قضى على ثورة « أهل الربض » بقرطبة ، وإليها تنسب التسمية ، وعبد الرحمن الأوسط ، ومحمد بن عبد الرحمن ، وعبد الرحمن الناصر الذى سمى بالخليفة ، والمنصور بن أبى عامر ، كانوا كل حسب ظروف وضعه وطبيعة الأحداث التى عاصرته ، يجاهد ويواجه الثورات والفتن ، دفعاً عن استمرارية الأندلس وتحاشى تمزقه وانفجاره ، ثورات هنا وهناك ، وفتن وتربص من الأعداء ، ومع هذا فتحت الحصون ، وسجلت انتصارات تلو انتصارات فوق أرض أندلس ، هذا الأندلس الذى كان عليه أن لا يغفل عن المتربص به من أعدائه بقدر عدم إغفاله لمكنونات ذاته ، التى كثيراً ما كانت تعانى من طفيلات الفتن ونزعات العصبية والأنانية الضيقة للانتماء ، ولعل هذه الأحداث متكاملة دفعت بأندلسنا المتأزم إلى التطلع نحو الجنوب ، نحو مغرب المرابطين المنقذ ، لمساندته باسم الإخاء والتكامل تحت راية الإسلام ، وقد كان ، فهذا أبو يعقوب يوسف ابن تاشفين الذى لم يكتف بتوحيد راية الإسلام فى المغرب حتى تخوم السودان وإفريقيا السمراء فى امتداد شاسع ، ويؤكد ما لسماحة الإسلام وتلقائيته وبساطته من تقبل وتعاطف لدى كل الفئات والشعوب ، وإنما زحف إلى الأندلس

منقذاً أو موقفاً لتنفيذ تراجعه وارتداده وتقلصه ، ولحقبة من السنين ، رغم ما كان ينخر فى جسد هذا الأندلس من فتن وصراعات وتطاحن حول السُلطة ومن أجل السُلطة ، وتفش للتعصب والعصبية عبر مختلف الضروب والقنوات ، ومع هذا كان إصرار يوسف بن تاشفين على أن يتواجه مع مختلف الأعداء والخصوم والمارقين عبر هذا الصرح المتهاوى ، ليشده ويعيد إليه إيقاعه وتجانسه ووحدته ، متحدياً لكل الصعوبات ، فهو الذى قال حين التقى بالمعتمد : « إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان توجهت » (كما جاء فى المعجب ، لعبد الواحد المراكشى ، ص ١٣١ - ١٣٢) .

وكذا خلال إقامته القصيرة فى إشبيلية بعث إلى ملوك الطوائف يستنفرهم للجهاد ، وكان أول مَن لبى الدعوة عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وغيره ، وكانت كما هو معروف « معركة الزلاقة » يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م) ، التى آلت رغم تفوق الأعداء وتحديهم فى النهاية لتصبح لصالح الجيوش الإسلامية بقيادة يوسف بن تاشفين ، الكهل المتصدر بنفسه ، مؤكداً بذلك على مصداقية إمارته للمسلمين ، ومستجيباً لكل مَن دعوه للدفاع عن الإسلام وإنقاذ الأندلس من أهل العلم بالمغرب والمشرق على حدٍ سواء ، كمجرد مثال : الغزالى وأبو بكر الطرطوشى وغيرهما ، ولم تُثْن أبو يعقوب يوسف ابن تاشفين وفاة ابنه أبو بكر فى مراكش عن جهاده من أجل إنقاذ الأندلس مبرهناً على أن دوره كقائد أمة ، متجاوزاً لدوره كرب للأسرة (راجع الحلة ، لابن الأبار ، جـ ٢ ص ١٠٠) .

كذلك نتذكر باعتزاز لهذا القائد ما أوردته المصادر التاريخية (وفيات الأعيان - كمثال وغيرها) بخصوص رسالته التى بعث بها إلى قائد جيوش عدوه ويقول فيها : « بلغنا يا اذفونش أنك نحوت (أو دعوت - كما جاء فى وفيات الأعيان) الاجتماع بنا ، وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد جُزناه إليك ، وجمع الله فى هذه العرصة بيننا وبينك وترى عاقبة ادعاءك :

﴿ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ »[1] . اشتد غضب ألفونسو بعد قراءته ، وقال من بين ما قال : « قل للأمير : لا تتعب نفسك ، أنا أصل إليك وإننا سنلتقى فى ساحة المعركة » ... وكانت له جولات وجولات بعد معركة « الزلاقة » دفاعاً عن أرض الإسلام فى الأندلس ومن بعده ابنه أبى الحسن على بن يوسف ، ومعركة « اقليش » حول طليطلة ، ولقد سميت المعركة بمعركة « الأقماط السبعة » أى الأمراء السبعة وهنا « معركة أفراغه » ... واستمرت ذُرِيَّة ابن تاشفين فى اهتماماتها بالأندلس رغم كل التحديات فى الداخل والخارج ، مقدمة بذلك صفحة مشرفة من صفحات التاريخ نستعيدها ونعيدها على الأذهان باعتبار أن أبطال الأمة مهما تداول التاريخ أيامه يظلون معالم مضيئة لا يخبو نورها على مر الأعوام والسنين مصداقاً لقول الحق : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾[2] ...

هذا هو حال يوسف بن تاشفين ، وأبنائه من بعده ، كممثلين للمرابطين فى جهادهم ، وكقلاع مجد فى الأندلس ، فكيف كان حال الموحدين من بعدهم ؟

تبنى الموحدون بدورهم الدفاع عن الأندلس والمواجهة فوق أرضه ، سواء مع عبد المؤمن ومن بعده ابنه سعد الذى تواجه مع النصارى فى موقعة الجلاب (عام ٥٦٠ هـ) إلى جانب التصدى للفتن والصراعات التى ما انفكت تختفى لتظهر ، وتنطفىء لتشعل هنا وهناك فى بقاع الأندلس وفتراته المتعاقبة .

ولا شك أن البطل يوسف بن عبد المؤمن الذى خرج ليواجه بدوره الخصوم والأعداء فى ناحية قلعة رباح يستحق إشارة لنعرف بما رواه (صاحب الاستقصاء الناصرى ص . ١٥ - ١٥١) وكيف كانت نهاية هذا الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن التى شاءت التوجهات التى فُهمت خطأ أن تضعه وجهاً لوجه مع العدو الذى انفرد به بجوار حصن شنترين ، حيث بارز النصارى ولم يتهرب أو يتراجع ، محاطاً بقلة من عبيده وحشمه ، وحينما وصل العدو إلى مكانه برز له

---

(١) غافر : ٥٠ (٢) الرعد : ١٧

وقاتل بسيفه وقتل ستة من أعدائه ، ولكنه طُعِنَ طعنة غادرة نفذت فى جسده ، ومع هذا كانت نهاية المعركة لصالح البطل يوسف بن عبد المؤمن الذى يذكّرنا بطل آخر من أبطال هذه الأمة المعتزة بإسلامها بفضل رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه ، ساعين إلى الشهادة والاستشهاد فى سبيل ما يؤمنون به .

لقد كان صلاح الدين الأيوبى بدوره فى معركة حطين مواجهة مباشرة مع عدوه ، مع حفنة من حرسه ورجاله ، واستبسل وبجانبه ابنه مقاتلاً حتى انتصر مردداً كذب الشيطان ، يوسف بن عبد المؤمن نذكره جنباً إلى جنب مع صلاح الدين الأيوبى ، فهذا الموحدى وهو يعانى من سكرات الموت نتيجة للطعنة الغادرة لفظ أنفاسه مستشهداً ، وبويع من بعده ابنه يعقوب بن يوسف الذى استكمل جهاد والده ضد أعداء أمة الإسلام فى الأندلس .

يعقوب الملّقب بالمنصور بطل معركة الأرك الذى تحرّك من مراكش إلى الأندلس للمرة الثانية متوجهاً إلى إشبيلية العاصمة واضعاً للخطط ، فى الوقت الذى استنجد فيه ألفونسو الثامن صاحب قشتالة بملكتى ليون وبرتغال ، ونزل فى الأرك كنقطة حدود بين قشتالة والأندلس ، وبعد مناوشات ، تواجه الجيشان وانتصر الموحدى المنصور مستعيداً للمسلمين أمجاد الزلاقة ، فحينما تُذكر هذه للمرابطين تذكر الأرك تمجيداً للموحدين .

وجاء عصر المرينيين ، وهم كذلك لم يتنكروا للأندلس الذى يعانى ويطلب النجدة والإنقاذ بعد أن تقلص وتراجع أمام معاودة النصارى لهجماتهم مع ألفونسو العاشر ، وما كان من استنجاد محمد بن الأحمر بأمير المسلمين المرينى أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقّب أيضاً بالمنصور ، الذى استجاب وأرسل بالمساعدات التى وصلت لولد المستنجد فى غرناطة بعد وفاة أبيه .

وقد ذكرت لنا المصادر الخاصة بهذه الفترة حين تأريخها لها (كالذخيرة فى تاريخ الدولة المرينية ، لعلى بن أبى زرع الفاسى ، ص ١٤٨ وما يليها) ، كما تذكر غيرها من المصادر أن ما يقرب من ثلاثة آلاف من بنى مرين هبوا مجندين لنصرة ملك غرناطة محمد الثانى المكنّى بالفقيه ، وكانت المعركة عند مدينة

استيجة جنوب غرب قرطبة ، وتواجه المجاهدون بجيش كبير صحبة ابنه يوسف الذى كان فى مقدمة الجيش ، وانتصر على القشتاليين انتصاراً باهراً ، ويُذكر أنه استهل المعركة بخطاب تعبوى لجيشه مستشهداً بالأحاديث النبوية الواردة عن معركة « بدر » اقتداءً برسول اللّه عليه السلام ، ومما قاله كما روى : « إن الجنة قد فتحت لكم أبوابها ، فبادروا إليها وجُدُّوا فى طلبها ، وابذلوا النفوس فى أثمانها ، ألا وإنَّ الجنة تحت ظلال السيوف ، وإن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فاغتنموا هذه التجارة الرابحة وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة ، وشَمِّروا عن ساعد الجد فى جهاد أعداء اللّه الكفرة ، وقتال المشركين الفجرة ، فمَن مات منكم مات شهيداً ، واصبروا ، وصابروا واتقوا اللّه لعلكم تفلحون ....» . (الذخيرة ، المصدر السابق)

ومع هذا ، ورغم كل ما قُدِّم لهذا الأندلس من مساندات مرابطية وموحدية ومرينية استطاعت أن تؤخر ساعة التنفيذ لضياع هذا الأندلس مرممة لشروخه ، باحثة عن توازن لهزاته ، بل وتراجعه وتقلصه ، ليؤول فى النهاية إلى ماتبقى حول غرناطة الحبيسة الصامدة التى ظلت ولفترة من الزمان تصارع وتتصارع فى داخلها ومع ما حولها وما هو خارج عنها ، محاوله تجسيد ما تبقى من أغصان فى هذا الفردوس المفقود .

رمزت غرناطة رغم حصارها ومحاصرتها لصمود لا يمكن أن يُستبعد من مسيرة قلاع المجد ، فإن كان قَدَرها قد فرض عليها أن تعايش الفتن والمكائد الأسرية بمختلف ضروبها ، تعانى وتتمزق ، إلا أنها قدَّمت لنا رجالاً تواجهوا مع الأحداث رغم مرارتها وقسوتها وبخاصة فى لحظات الاحتضار ، وكمثال نسوقه من بين أمثلة كثيرة للفداء والعطاء الرفيع : موسى بن أبى الغسان ، فكما ورد عند « كوندى – Condé » فى تاريخه عن حكم العرب لأسبانيا (المجلد الثالث ، الصفحة ٢٥٤) حول هذه الشخصية وجهادها فى فترة سقوط غرناطة ، وخير مثال ما شهدت به الأعداء : أن هذا الغسان سليل إحدى الأسر العريقة

التى تتصل ببيت الملك والتى عُرفت بفروسيتها ومواجهتها للنصارى ، تبحث عن الاستشهاد وتستنكر موقف المسؤولين عن تسيير الملك فى غرناطة استكانتهم وخضوعهم لملك النصارى ، فكان موسى بن أبى الغسان يُذكّى روح الحماس والجهاد وقيادة السرايا إلى أرض العدو ومفاجئة حصونه وحامياته فى الأنحاء المجاورة ، وحينما بعث فرناندو الخامس إلى أبى عبد الله يطلب تسليم الحمراء كان موسى من أشد المعارضين فى الاستجابة لهذا المطلب المهين ، وحاول بحماسة أن يستعيد المبادرة للدفاع حتى آخر رمق ، ومن أقواله المأثورة يومئذ نكررها باعتزاز بعد قرون : « ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية ، أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة فى المكان الذى أموت مدافعاً عنه من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين » .

ورغم قساوة المواجهة وانقطاع الإمدادات من المغرب ، وضعف دولة بنى وطاس التى كانت فى بدايتها آنذاك بالمغرب الأقصى ، ولم تطمح كأسلافها إلى نجدة الأندلس ، كما كان الحال مع المرابطين والموحدين والمرينيين ، قاد الفرسان المعارك وفى مقدمتهم نذكر للتاريخ نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة وموسى الذى يعنينا بمواقفه وأقواله الدامية حين يكرر صائحاً : « لم يبق لنا سوى الأرض التى نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن » .

وكان ما كان ، سبعة شهورمن الحصار لغرناطة الحبيسة ، واجتمع ما تبقى من رجالها فى بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، واليأس باد على الوجوه ، وتراكمت سُحب التسليم وضباب الاستسلام لتغطى الجمع ، وليس من معارض إلا البطل موسى بن أبى الغسان ، يستعيد أنفاسه مردداً فى إصرار : « لم تنضب كل مواردنا بعد ، فما زال لنا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات ، ذلك هو بأسنا ، فلنعمل على إثارة الشعب ولنضع السلاح فى يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لى أن أُحصَى من الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أُحصَى من الذين شهدوا تسليمها » ، ولكن ليس فى الجمع من مجيب ، بل فوّض السلطان المستسلم المهزوم أبو عبد الله الأمر للجماعة ، وتحامل الوزير أبو القاسم عبد الملك على نفسه المنهارة ليقوم بمهمة المفاوض مع ملك قشتالة

مستسلماً ، وذلك فى اليوم المشئوم من أكتوبر ١٤٩١ م (٨٩٦ هـ) ، وأسدل الستار بعد أن قفلت أبواب الفردوس المفقود .

ومع هذا ، هناك مَن يرى أن المفاوضات لم تبدأ فى الواقع يومئذ ، بل مورست فى الممرات السرية بين ملك غرناطة الذليل ووزير ضلاله وضياعه ، وبين ملك قشتالة وما كان من ظاهر الموقف إلا مداهنة ومهادنة لشعب ثائر أبى أن تتحنى رأسه إلا إذا قُطِعَت ، بل هناك مَن يرى أن الهدايا لعبت دوراً بين المفاوضين ، وما أُعطى من ضمانات لملك ذليل وأفراد أسرته ووزرائه ثمناً لخداعهم لشعوبهم ولاستكانتهم .

ضاعت غرناطة الحبيسة شهيدة وضحية لملك عجز عن حمياتها ، متزلقاً فى مزالق الارتزاق والمكاسب الفانية والضمانات المادية الزائلة والمنح الرخيصة ، كما أشار إلى ذلك صاحب « أخبار العصر » (ص ٤٨ - ٤٩) من بيع ممتلكات خونة غرناطة قبل معاهدة التسليم ، وذلك بزمان ليس بقصير ، خيانة مبيتة أو خيانة ذليلة ، أو تراجع عن مواكب البطولة والاستبسال ، لقد وقعت معاهدة التسليم فى نوفمبر ١٤٩١ م (٢١ من المحرم سنة ٨٩٧ هـ) وبقى لنا من غرناطة ، ومن قبلها فى الأندلس أسماء رجال نذكرهم كقلاع للمجد ، أبطالاً مجاهدين ، متجاوزين بهم قطعان الخونة وفلول المرتزقة والانتهازيين والمتشخصنين والمتآمرين ....

هؤلاء الأبطال عبرنا معهم فى هذه الحلقة مختلف فترات الأندلس : فاتحين ، مرابطين ، موحدين ، مرينيين ، صامدين ، لنؤكد أن بؤر الضياع لم تنسينا قلاع المجد التى حفل بها الأندلس ، كما حفل بالمجتهدين والمبدعين ، علماء مفسرين ، ومحدِّثين فقهاء وتربويين ، وأطباء ورياضيين وفلكيين ، فلاسفة ومتصوفين ، شعراء وأدباء ، ورحَّالة جغرافيين ومؤرخين ، وآثاراً لا أطلالاً ، وإنما مآثر نفخر ونتفاخر بها كمسلمين ....

وسوف نخصص - وباختصار - الحلقة الحادية عشر والأخيرة للتعريف بهذا العطاء ، فضلاً عما فيه من إعزاز وإكبار واعتبار.

* * *